صور من الحياة :

زوج يضـــل !

الأستاذ كامل محمود حبيب

أتذكر — يا صاحبي — يوم أن نلت شهادة الدراسة الثانوية وأنت — إذ ذاك — فتى ربيع في العشرين من عمرك ، تتهادى القوام قوى التكوين صلب العود مشرق الوجه بهي الطلعة ، تبسم للمستقبل في ثقة وتتنسم ريح الحياة في استبشار؛ يوم أن جئت تزف البشرى لأبيك الشيخ فتلقاك في سرور ورنت على كتفك في فرحة ، ثم حث تدل على رفاقك بالفوز وهو عظيم وتزهو بالتفوق وهو بين . وسألك أبوك عن هدفك الذي تصبو إليه فقلت له « أريد أن أدرس الطب » فأطرق في صمت وقد علت وجهه فترة ، وإن الأفكار لتصطرع في ذهنه ، وإن الخواطر لتضطرم في رأسه ، فما له طاقة بما تتطلبه دراسة الطب من جهد ومال ، وهو يحس لذع العوز والضيق ، وأراد أن يصرفك عن بغيتك في لين فأصررت ، وانطلق يشير على عينيك ببعض ما يعاني من فاقة ومتربة ، فما وعى عقلك النير مما قاله شيئاً لأنك شاب لم تصقلك تجارب الحياة ، ولا عركتك دوافع العيش ، فأصررت . وراح هو يدير الرأي في رأسه علّه يجد منفذاً أو يهتدي إلى حيلة .

ومضت أيام والشيخ يضطرب في لجة من الهم ، فهو لا يستطيع أن يلقي السلم إلى ترعاتك ، فيدفع بنفسه إلى هوة من الدين والإملاق ، وما هو يستطيع أن يحول بينك وبين أمنيتك ، فتستشعر الضنة والصغار بين أترابك .

وعلى حين فجأة انبسطت أساريره وانزاحت عنه غمة الأسى ، فجلس يحدثك « أحقاً يا بني أنك تطمع في أن تدرس الطب ؟ » قلت « نعم ، يا أبي ، ولا أبتغي به بديلاً » قال « إذن تتزوج من ابنة خالك وهي فتاة يتيمة ، تجمعكما وشائج القربى وصلات النسب وهي ذات مال يشد عضدك ويمهد لك السبيل إلى غايتك » . وأزعجتك الفكرة ، بادي الرأي . فما كان لك أن تفرغ للزوجة والولد وهما مشغلة ، وأنت تهيء نفسك لجهاد عنيف بعيد المدى مجهول العاقبة . ولكنك ما لبثت أن أسلمت لأنه ترءى لك أن الرفض حماقة تحد حبل المستقبل ، وهو طافح بطفاء شملة الأمل الوضاء . أسلمت لتكون زوجاً وربّ أسرة وأنت ما تبرح طالباً في العشرين من عمرك .

وقال لك أبوك وقد تهيأتما معاً — أنت وزوجك — للسفر « يا بني ، هذه زوجتك تذر دارها لترعى شأنك وإن الدار لتشرق بالنعمة والخفض ، وتنأى عن أهلها لتأنس إلى حماك وإن قلوب ذوي قرابتها لتفيض بالحنان والعطف ، وتفزع إلى رجولتك وإن حواليها ألف رجل ورجل يفتدونها بالروح والمال ، وتنزل لك عن عالمها وهو غمر لتهدأ جائشتك وتسمو إلى طلبتك ؛ فكن إلى جانبها رجلاً . والرجل إن ضاق بالمرأة زوجة لم يضق بها رفيقة ، وإن ضجر بها صاحبة لم يفزع عنها ربة دار وأماً . وإن الشهامة في الرجل لتجعله — دائماً — يحس في المرأة العجز والضعف ، وتدفعه — أبداً — إلى أن يجد اللذة والسعادة في أن يحمي ضعفها ويغاضل عن عجزها . وهذه الفتاة — زوجك — منك بالمكان الذي تعرف فكن لها عائلاً وأخاً وصاحباً ؛ واستشعر — دائماً — إلى جانبها الرجولة والشهامة والإنسانية »

ودوّت كلمات أبيك الشيخ في سمعك فانتفض لها قلبك لأنك لمحت فيها نور السماء يتألق على لسان ملك .

وجاءت الزوجة الريفية لتعيش هنا في — في القاهرة — سجينة في دارك لا تجد السبيل إلى متعة المدينة ولا إلى نور المدنية وأنت طالب لا تملك فراغاً من الوقت ولا فضلة من المال . وراضت الزوجة نفسها على الصبر فهي تقضي صدر النهار في غمرة من حاجات الدار : تعد لك الطعام وتهيء اللباس وتوطيء الفراش ؛ ثم هي تدعك — صدر الليل — تفرغ إلى درسك تنتظر أوبة قلبك وفراغ عقلك . وأنى لها ما تريد وأنت تسعى إلى غاية وتهدف إلى غرض ، والطريق وعر والمرتقى صعب .

وعاشت الفتاة إلى جانبك سبعاً شداداً لا تجد السلوة إلا في صلاتها وإنها لمن بيت دين وصلاح فراحت تطوي ساعات الليل في تهجد على غير علم وصلاة على غير أساس وتلاوة في جهل ، وانغمست في الطريق في غير رفق فأصابتها لوثة دينية صرفتها عن أن تكون أنثى تبهر عين الرجل بزخرف من القول وبهرج من اللباس وزينة من الملاء.

وشملتها موجة عارمة من الفرح يوم أن تخرجت في كلية الطب فأقبلت إليك وإن إهابها ليكاد ينقد من شدة الطرب ... أقبلت تهنئك بالفوز المبين . ودوّت كلمات أبيك الشيخ في مسمعيك فانتفض قلبك ونيقظت مشاعرك فأقبلت أنت أيضاً تهنئها بنجاحك وبين يديك أولادك الصغار .

وانطوت السنون تدفعك إلى ذروة المجد وترفعك إلى قمة الثراء فما حدثتك نفسك مرة واحدة أن تطب لمرض زوجك ، وهو عنه دهي ، وأنت من بذرت غرائسه في نفسها حين أرهقتها الوحدة وأمضّها الخلوة ؛ وأنت في شغل لا تنبأ بما يعتريها من ضيق ومال ولا تلقي بالاً إلى ما يجتاحها من ثورات نفسية ، فانطلقت — وأنت طبيب — تقضي سحابة النهار في التشرق ، وتطوي هزيعاً من الليل في العيادة يخلبك بهرج المال ويجذبك لألاء الغنى . والطبيب ساحر يمصر دماء المرضى فتتدفق في جيبه سيلاً من الذهب .

ثم حالت حالك ؛ فأنت لا تدخل الدار إلا ثائراً تتطاير ، ولا تحدث أهلك إلا غاضباً تحتدم ، تفزع من زوجك في غير رحمة ، وتهر في أبنائك في غير شفقة . وتفتحت عيناك على أشياء كنت — من قبل — في عمى عنها ؛ فأنت لا ترى في الدار إلا القاذورات تتناثر هنا وهنالك فتبعث فيك الاشمئزاز ، والإرائحة النتن تفوح من نواحيها فتستفزها نفسك ، وإلا التشعث يملأ أرجاءها فينفث فيك الثورة والاضطراب ، ثم لا تسد أنت الثغرة في رفق ولا ترأب الصدع في لين .

ليت شعري ، ما فا دهاك فطمّ على ربوعك فما عدت تسمع كلمات أبيك الشيخ تدوي في مسمعيك وإن فيها نور السماء يتألق على لسان ملك !

لقد عشت زماناً ترى في عيادتك القد الأهيف والكشح المهضم والثوب المنهاف ، وتحس الابتسامة الرقراقة والخد الأسيل والشعر السبط ، وتتنشق شذى العطر الجذاب ؛ على حين لا ترى في دارك سوى زوجة بلهاء في ثوبها الأبيض الفضفاض تنتحي ناحية من حجرة وتنطوي على أورادها تتلوها في حركة رتيبة يملها القلب وتضيق بها النفس .

وراح عقلك الكبير يقارن بين الفتاة التي ترى في الشارع وفي العيادة وبين زوجك الريفية الجاهلة ، فسيطر عليك الأسى واستولى النفور على قلبك ، ونسيت يوم أن كنت فتى في العشرين من عمرك ... ، فما استطعت أن تكظم نوازع نفسك فجلست إلى صديق لك تبثه لواعج الفؤاد ولوعة النفس فقال لك « لا بأس عليك ! إن في الأرض مراقياً كثيراً وسعة » فقلت له « وماذا تعني ؟ » قال « تتزوج من ابنة فلان باشا ، وهي فتاة في روعة الجمال وأبهة العظمة وسمو الجاه ومنتهى الثراء ، تتوثب شباباً وظرفاً وتتألق أناقة ورقة ، فيها ثقافة الشرق وتربية الغرب ، تتحدث في طلاقة وتأسر في لباقة » قلت في دهشة « وابنة خالي ، ابنة خالي ؟ » قال الرجل « ابنة خالك ؟ لقد نسيتها في بيتها بين بنيها وأورادها ... إنها إن تحد فقدك فهي في شغل عنك وإن لك من ثرائك ما يكفل لها عيشة راضية وحياة طيبة » قلت « ولكنها هي ... هي زوجة تسعى ! » قال « هذا حديث لفته السنون في ملاءة النسيان ! » قلت « وأنا ؟ ... لقد قاربت الأربعين » قال « هذا وهم باطل فأنت ما تزال في ربيع العمر تفور نضارة وشباباً » .

لشد ما أفزعتك الخاطرة — بادىء ذي بدء — فقضيت ليلتك تتقلب في فراشك تدبر الرأي علك تهتدي . والشيطان إلى جانبك يزين لك الأمر ويغريك من زوجك وأولادك الأربعة . وقالت لك نفسك « هناك في كنف ابنة الباشا تجد السعادة والرفاهية والثراء والجاه جميعاً » .

وانطوت الأيام والشيطان يوسوس لك وصاحبك من ورائه يزخرف القول ويمنق الحديث . وعلى حين غفلة ارتفعت صيحات الشيطان في قلبك فطمت على وجولتك فما عدت تسمع كلمات أبيك الشيخ تدوي في مسمعيك وإن فيها نور السماء يتألق على لسان ملك .

وفي ذات ليلة ، انطلقت برفقة صاحبك إلى دار الباشا لتصبح زوج اثنتين ، ولتطعن قلب المرأة التي ضحت في سبيلك بما لها وشبابها لتكون أنت طبيباً عظيماً تستطيع أن تتزوج من ابنة الباشا ، لتطعن قلبها طعنة قاسية تعصف بهدوئها وتهدم سعادتها .

آه ، يا صاحبي ، لو رأيت عبرات بنيك وهي تنهمر مدراراً ليلة عرسك . لقد كانت تتساقط على قلبي — قلبي أنا الإنسان — قطرات من نار تلهب لظى وشواظاً . أما أنت فقد فقدت — حينذاك — رجولتك وإنسانيتك في وقت معاً

يا صاحبي ، إن الزوجة تلقي بنفسها في رعاية الزوج لتتشبث منه بمخيوط ثلاثة : الرجولة والشهامة والإنسانية .

فاضل محمود حبيب